كيف تعاملت الحضارات السابقة مع الأحلام؟

”كنت أسقط من مرتفع وأحاول الصراخ عبثًا، انقبض صوتي داخل صدري وواصلت سقوطي الحر إلى أن استيقظت غارقًا في عرقي“، هذا الحلم هو الحلم الأكثر شيوعًا بين البشر حسب عالم النفس إيان والاس وفق مقابلة له أجراها مع صحيفة ”الإندبندت“ البريطانية.

قد تظن أن الحلم لغة ذاتية قاصرة، وقد يخطر لك أيضًا أنه مجموعة أحداث عشوائية صاغها عقلك إذ فشلت صباحًا في إعادة صياغة حلمك بدقة، لكن الحلم في الواقع، حيز إنساني مشترك يحمل لغة تفعيلية كونية، تقوم على مجموعة من الرموز الأولية، وعناصر تتكرر في أحلام أشخاصٍ مختلفين عبر أزمنة وأمكنة متباعدة، و تشكل هذه العناصر نموذجًا مبدئيًا للغة تعبيرية شأنها شأن كل الأنماط التواصلية الأخرى.

أنت تحمل داخلك أحلام أسلافك، كونك تنتمي إلى الطور الحديث من عمر البشرية، لا يعني أن أحلامك تختلف عن أحلام الإنسان القديم.

انطباعات الحضارات السالفة

أمام حيرة الشعوب البدائية في التعامل مع الأحلام، أخضع الإنسان القديم الرؤى لتفسيرات خرافية أكسبت الحلم طابعًا روحانيًا.

السومريون

جنوب بلاد الرافدين، ظهرت أولى الحضارات الإنسانية وأغناها تراثًا وآثارًا بفضل الألواح الطينية المدونة بالخط المسماري، لذلك السومريون أول من دونوا الحلم تاريخيًا، أول مرة يذكر بها الحلم في تاريخ الإنسانية، كان في قصيدة سومرية تعود إلى العصر الحجري الحديث، يقص فيها الأمير كوديا رؤياه على الآلهة ناتشه، فتخبره أنها خطاب من الشيطان، الحلم في الحضارة السومرية، والحضارة البابلية لاحقًا، خاطرة من الإله أو الشيطان.

مصر القديمة

في أرض الحلم التقليدية، كان الناس مرتهنين بمعاني أحلامهم يولونها شأنًا كبيرًا، فالمصري القديم لم يكن يعيش ليومه، كان يعيش لأبده، معابد النوم، مدرسة إهناسيا هي أماكن خصصها المصريون القدامى لتفسير الأحلام.

امتد الحلم من التأثير في أصغر الفلاحين والعبيد إلى التأثير في الهندسة والسياسة والفلاحة، وكان الشخص الضليع في تفسير الرؤى ذا جاهٍ ومكانة عظمى بين قومه، أما أشهر الأحلام في مصر القديمة هي رؤيا مزيفة قام الملك تحتمس الرابع بتأليفها ليحتال للاستيلاء على العرش، ثم رؤيا الملك أمن حوطب التي قام النبي يوسف بتأويلها.

الحضارة الصينية

الصين كذلك رقعة أساطيرَ وتاريخٍ زاخر بسحر الشرق، إن النظرية الأساسية في تفسير الأحلام في الصين تقوم على المبدأ "الطاوي": الذات الإنسانية تتألف من عنصرين هما الـ"هوين" و"البو "، والبو هو النفس المتعلقة بالجسد والتي تتحلل بتحالله، أما الهوين فيحل في الجسد عند الولادة، وهو النفس الأبدية الممتدة، ذلك أن "الهوين" نفس قادرة على السفر عبر العصور وملاقاة الأموات والأرواح السابقة عبر الحلم.

كما يخضع الحلم لتفسير آخر هو الأقرب للتفاسير الحديثة حيث قسم الصينيون القديمة النفس إلى نفسٍ ذكورية قوية مسيطرة رموزها الصيف والنهار والضوء والصحراء، ونفسٍ أخرى أقل مقاومة وأكثر ضعفًا كالقمر والظلماء والأنهار، وتفسر الأحلام حسب رؤية هذه العناصر في المنام وهو أقرب التفاسير لتقسيم علم النفس (الأنا، الأنا العليا، الهو).

اليونانيون

يقول هوميروس في الأوذيسة: "أيها الغريب، ثمة أحلام غامضة لا يسبر غورها، وهي لا تكشف كلها المستقبل للناس، لأن هناك بابين الأحلام الرجراجة، واحدًا من العاج والآخر من القرن، فالتي تخرج من باب العاج ليست أكثر من أوهام خادعة وسراب، أما تلك التي تخرج من باب القرن الأملس فتتحقق فعلاً بالنسبة للكائن الفاني الذي تتراءى له"، تلخص هذه المقولة واحدة من النظريات الكثيرة التي استند إليها اليونانيون في تفسير الأحلام، لكن باختلاف الفلسفات كان لكل فترة تأويلاتها.

يعد كتاب "علم الأحلام" لأب التحليل النفسي في الفكر العالمي، النمساوي سيغموند فرويد، واحدًا من أشهر الكتب العلمية في تاريخ البشرية

تفسيرات الأحلام القديمة كانت تستمد مادته من دلالات الرموز الحية، وحتى عبر مراحل التفتح النفسي التي مرت بها البشرية ما زالت بعض الشعوب تفسر الأحلام بناء على مواريث قديمة كالموروث اليهودي أو الإسلامي مثلاً، مما يدعم فكرة وجود أنماط حلمية مشتركة على مستوى الشعوب وعبر المراحل الثقافية المتباينة والخصوصيات الإثنية لكل مجتمع.

البشرية تحلم معًا

عبر التاريخ تأكد أن الأحلام الفردية تنتمي لتاريخٍ ممتد من الأنماط الجماعية، إذ إن حلم إنسان هذا القرن يحمل في طياته بعض أحلام الإنسان القديم، اللاوعي الجمعي يولد من كل التجارب الإنسانية منذ فجر التاريخ، فهو إذًا ليس محصلة مجموع اللاوعيات الشخصية، إنه ذاكرة الإنسانية النفسية منذ ولادتها.

صاغ المحلل النفسي كارل غوستاف يونغ هذا المفهوم في القرن العشرين وأدمجه في دراساته التحليلية، هو ببساطة عقل باطني كوني ذو ذاكرة ممتدة تجمع فيها الرموز والتجارب، وتشكل الأساطير

بوابة اللاوعي الجمعي.

تخيل معي رجلاً عجوزًا حكيمًا، الصورة التي انطبعت في ذهنك هي صورة رجل بلحية بيضاء كثيفة ورداء أبيض وربما عكاز، أغلب الناس في كامل أصقاع الأرض أيضًا سيتخيلون نفس الرجل مع تعديلات بسيطة حسب مفاهيمهم للحكمة وذاكرة شعوبهم، لكن اللحية واللون الأبيض سيكونان حاضرين.

يقول يونغ: "الحلم يعطي صورة للحالة الداخلية للفرد، بينما العقل الواعي ينكر بأن هذه الحالة موجودة، وهو إذا ما اعترف بوجودها، فإنه يفعل ذلك مكرهًا، فنحن عندما نصغي إلى أوامر العقل الواعي، فنحن في حالة شك دائم، والحلم يأتي كتعبير عن عملية نفسية غير إرادية وغير مسيطر عليها من وجهة نظر واعية، وهي إنما تمثل الحالة الداخلية للفرد كما هي عليه في الواقع".

رحلة في منامات فرويد

عشرات ملايين النسخ، آلاف الدراسات والتحاليل والقراءات النقدية، مئات الترجمات، يعد كتاب "علم الأحلام" لأب التحليل النفسي في الفكر العالمي، النمساوي سيغموند فرويد، واحدًا من أشهر الكتب العلمية في تاريخ البشرية، وأكثر الكتب مبيعًا على مر التاريخ بعد الكتب المقدسة وأعمال شكسبير.

يعتبر فرويد من الممثلين الرئيسيين للتيار الطبيعي الذي يعتمد حصرًا على الظواهر الطبيعية، في هذا الكتاب يفسر فرويد ماهية الأحلام قائلاً إن الأحلام تنتج عن الصراع النفسي بين الرغبات اللاشعورية المكبوتة والمقاومة النفسية التي تسعى لكبت هذه الرغبات اللاشعورية، وبالتالي فإن الحلم عبارة عن حل وسط أو محاولة للتوفيق بين هذه الرغبات المتصارعة.

الحلم قديمًا محددًا دينيًا وسياسيًا، تراجعت مكانته في العصر الحديث وصار شأنًا ذاتيًا، لكنه احتل مكانة كبرى في منظومة الظواهر النفسية والدراسات المتعلقة

الأحلام عند فرويد إذًا ليست مجرد بقايا نهارية، يتفق فرويد مع كارل يونغ بأن التجارب الفردية في الماضي يمكن لها أن تكبت في اللاوعي وتظهر مشوشة في الأحلام.

لكن فرويد ينظر إلى الأحلام من وجهة نظر سببية، أي الرغبات الطفولية ترضي هذه الأحلام؟ وأي العقد النفسية تكشف عنها؟ بينما كارل يونغ يذهب إلى حيث بدايات الأحلام وأصولها الرمزية وما القوى البدائية المستقرة في لاوعينا.

يرى فرويد أن الحلم تعبير عن اللاوعي كما أنه انعكاس سلبي للرغبات، ويجب التعامل مع الرمز الذي يظهر في الحلم وكأننا أمام منظومتين: دال ومدلول، الأهم نظرية فرويد في تأويل الأحلام أنه ينتقل من مقام التحليل إلى مقام العلاج النفسي.

ترى الصيغة الشعبية الحالية أن فرويد بطل ومنقذ فعلي انتشلنا من الخرافة ودغمائية القرون الفارطة، لكن سيغموند فرويد من أكثر المفكرين الذين تعرضوا لمحاولات الاغتيال الفكرية والتصغير والتحقير واعتباره مهووسًا بالجنس يسعى للتطبيع مع الرذيلة.

الأحلام الجنسية طبيعية تمامًا ولا تدعو للقلق أو إلى وجود مشكلة ما، و قد توصل علم النفس إلى التفاسير التقريبية لأكثر الأحلام الجنسية شيوعًا

فيما كان الحلم قديمًا محددًا دينيًا وسياسيًا، تراجعت مكانته في العصر الحديث وصار شأنًا ذاتيًا، لكنه احتل مكانة كبرى في منظومة الظواهر النفسية والدراسات المتعلقة بها حتى وصل إلى مراحلً متقدمة مكنت الإنسان العادي غير الضليع في علم النفس من تفاسير للأحلام المشتركة بين البشر:

السقوط من مكان عالٍ (أكثر الأحلام شيوعًا على الإطلاق): يعكس هذا الحلم أن صاحبه يمر بفترة مزعجة أو مشكلة لا يعرف كيفية الخروج منها.

الدخول لامتحان بذهن فارغ: يعكس هذا الحلم الخوف من مسؤولية مهنية أو عائلية.

الملاحقة من قبل غريب/خطر وعدم القدرة على الصراخ: يعني التردد في اتخاذ قرار قد يبدو خطيرًا أو المجازفة في طموح قد يبدو غير قابلً للتحقيق.

قيادة السيارة وفقدان السيطرة: يعكس هذا الحلم الخوف من فقدان السيطرة على وضع ما، كاختبار مهم أو علاقة جديدة.

عاريًا في مكانٍ عام: أكثر الأحلام إحراجًا، وهو انعكاس لخوفٍ دفين من انكشاف سر أو كذبة.

الأحلام الجنسية.. إحراج مضاعف

فيما قد تسبب مثل تلك الأحلام إحراجًا لصاحبها أثناء نومه (تعرق، صراخ، الحديث أثناء النوم)، فإن الأحلام الجنسية قد تسبب أضعاف ذلك الخجل خاصة بالنسبة للأزواج، إذ إن المعطى السائد سيكون أن صاحبها غير سعيد في حياته الجنسية، وهو طبعًا اعتقاد خاطئ فالأحلام الجنسية طبيعية تمامًا ولا تدعو للقلق أو إلى وجود مشكلة ما، و قد توصل علم النفس إلى التفاسير التقريبية لأكثر الأحلام الجنسية شيوعًا كذلك:

كل النظريات المتعلقة بالحلم مهما كانت منطقية الآن، فهي نسبية شأنها شأن كل النظريات الموجودة

نفس الجنس: بقدر ما يبدو الأمر صادمًا إلا أن هذا الحلم شائع للغاية، ولا يعكس على الإطلاق مثلية صاحب الحلم، بل غالبًا يعكس وجود علاقة تقاربٍ ثقة قوية مع شخصٍ من نفس الجنس.

حبيب قديم: لا يعني هذا الحلم أنك ما زلت مغرمًا بذلك الشخص، بل إنك تخاف تكرار خطأ ما.

شخص تكرهه في الواقع: في عقلك الباطن المشاعر الجنسية لا تتثأر بالضرورة بالحب والإعجاب، بل حتى بالكراهية والغضب باعتبارهما من أنواع الاهتمام.

كل النظريات المتعلقة بالحلم مهما كانت منطقية الآن، فهي نسبية شأنها شأن كل النظريات الموجودة، فحتى وقت قريب كان العالم يؤمن أن الذرة هي أصغر الأجسام، إلى أن تم تعديل هذه النظرية وتقسيم الذرة إلى أجسام أصغر منها، فلا وجود لحقيقة مطلقة. وكما قال آلبرت آينشتين، "كلما اقتربت القوانين من الواقع أصبحت غير ثابتة، وكلما اقتربت من الثبات أصبحت غير واقعية".

رابط المقال: https://www.noonpost.com/19394/